



خطبة صلاة الجمعة 13 / 8 / 2021 للشيخ الطيب محمد خير الشعال، في جامع أنس بن مالك، دمشق - المالكي

(الانشراف والعمل الصالح)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فهو المهتد، ومن يضل فلن تجد له ولياً مُرشدًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن سيدنا محمدًا عبده ورسوله، وصفيُّه وخليفه، خيرُ نبيِّ اجتبا، وهدى ورحمة للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون، ولو كره المشركون، ولو كره من كره، اللهم صلِّ على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسي بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ (II) لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾ [الحاقة: 11، 12].

الوعي في اللغة يدل على فهم الشيء وحفظه وفقهه والإحاطة به. والأذن الواعية هي أذن سمعت وعقلت ما سمعت، أو هي أذن تحفظ ما سمعت، وتفكر فيه وتعمل بموجبه.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «نَصَرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مَقَالَي فَوَعَاها؛ ثم بلغها، فَرُبَّ مُبْلَغٍ أَوْعَى مِنْ سَامِعٍ» [أخرجه الترمذي والطبراني واللفظ له وغيرهما].

هذه هي الخطبة الخامسة والعشرون في سلسلة عناوينا (توعية)، أعرض لكم فيها صوراً وأحداثاً من علاقاتنا الأسرية ومعاملاتنا المالية؛ صحيحة مرة لنعمم خيرها وننشر فضلها، وخاطئة أو مخطئة مرة لنحذر شرها ونترك فعلها؛ وفي كلتا الحالتين نفيد وعياً وفهماً.

يجب الإسلام أن يتحلى أبناؤه بالعلم، ويتزينوا بالفهم، ويتجملوا بالحكمة، ويتمسكوا بالتعقل والتدبر والوعي.

وعلى الطرف الآخر يكره الإسلام مخالطة الجاهلين، وصحبة السفهاء والمغفلين.

عنوان خطبة اليوم: الانشراح والعمل الصالح

سورة الانشراح التي تحفظون ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ (2) الَّذِي أَقْضَى ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)﴾ [الشرح: 1، 8] نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم في مكة، أي في زمن الشدة والضييق والكرب، عندما أُرْجِفَ المشركون الأراجيف وعندما حاصروا النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهَجَرُوهم وآذوهم، وعندما ضاقت صدور الصحابة وزادت همومهم واشتدت عليهم الكربات وتناثرت؛ أنزل الله تعالى سورة الشرح، أو الانشراح، ولما نزلت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أَبْشُرُوا أَتَاكُمُ الْيُسْرُ، لَنْ يَغْلِبَ عُسْرُ يُسْرَيْنِ» [أخرجه ابن جرير عن الحسن البصري].

مطلع السورة حديثٌ عن الانشراح "ألم نشرح لك صدرك" وخاتمتها حديثٌ عن العمل "فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب" بل إنه حديث عن الاجتهاد في العمل والتعب فيه. قال المفسرون: (هذا دليل على طلب الاستمرار في العمل الصالح والخير والمثابرة على الطاعة؛ لأن استغلال الوقت مطلوب شرعاً، وإن الله يكره العبد البطال).

وكان سورة الشرح تربط بين العمل الصالح والعلم النافع وانشراح الصدر، وبين كثرة الفراغ وضيق الصدر، فكلما اتسع وقت الفراغ ضاق الصدر، وكلما ضاق وقت الفراغ اتسع الصدر وانشرح.

إن الانشغال بالعمل الصالح والعلم النافع يؤدي إلى انشراح الصدر وطيب الذكر وعميم الأجر. ذكر العلماء عن كتاب المبسوط للإمام السرخسي في الفقه الحنفي، الذي جاء في عشرين مجلدةً، إنه أَسْنَى مَا أُلْفَ فِي الْفَقْهِ وَأَبْدَعُهُ وَأَعْدَبُهُ وَأَحْكَمُهُ وَأَجْمَعُهُ، وقد توفى الله الإمام السرخسي سنة خمس مائة للهجرة على التقريب، ولا يزال كتابه إلى اليوم مرجع الفقهاء وحجة العلماء، والعجيب أن السرخسي ألف كتابه هذا وهو في السجن، إذ حُيِسَ فِي الْجَبِّ بِسَبَبِ كَلِمَةٍ نُصِحَ، فكان طلابه يزورونه يجلسون على فم الجب وهو في أدناه يملي عليهم العلم من حافظته وهم يكتبون عنه، وكم توجع في سجنه ذاك، لكنه علم أن الشرح مع العلم النافع والعمل الصالح، وأن الضيق مع الكسل والخمول.

ومما كان يسطره في كتابه: (انتهى ربع البيوع، من المبتهل إلى الله تعالى بالخضوع وإسبال الدُموع، المنقطع عن الأهل والجموع)، إلى غير ذلك من أماكن يتوجع فيها من أزمته، لكنه أفاد من وقت فراغه وملاؤه بالنفع العميم.

إن الانشغال بالعمل الصالح والعلم النافع يؤدي إلى انشراح الصدر وطيب الذكر وعميم الأجر.

في أذكار الصباح والمساء التي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحافظ عليها: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْهَمِّ وَالْحُزْنِ وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُبْنِ وَالْبُخْلِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ غَلَبَةِ الدَّيْنِ وَقَهْرِ الرِّجَالِ».

وفي هذا الدعاء ربط بين الكسل والحزن، وبين العجز والهم، فكأنه صلى الله عليه وسلم يخبرنا بأن من زاد كسله وعجزه زاد همه وغمه، ومفهوم المخالفة فيه بأن من زاد عمله قلَّ همُّه.

ولهذا الدعاء قصة يرويها سيدنا أبو سعيد الخدري رضي الله عنه - كما في سنن أبي داود - قال: دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم المسجد، فإذا هو برجل من الأنصار يقال له: أبو أمامة، فقال «يا أبا أمامة! ما لي أراك جالساً في المسجد في غير وقت صلاة؟» قال: هموم لزممني وديون يا رسول الله، قال: «أفلا أعلمك كلاماً إذا قلته أذهب الله همك وقضى عنك دينك» قلت: بلى يا رسول الله، قال: «قل إذا أصبحت وإذا أمسيت: اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال» قال: ففعلت ذلك، فأذهب الله تعالى همي وغمي وقضى عني ديني.

إن الانشغال بالعمل الصالح والعلم النافع يؤدي إلى انشراح الصدر وطيب الذكر وعميم الأجر. يتفق الأطباء على أنَّ العضو الذي لا يعمل يمرض ويَضْمُرُ وُزْماً يموت، فاليد التي لا تتحرَّك تضمُر عضلاتها، وتيبس عروقها، وتتكلس مفاصلها، بينما العاملة بريئة من هذه العيوب. والأضراس التي لا يستخدمها صاحبها في طحن الطَّعام وتقطيعه تتنخر، وتزداد الترسبات الكلسية حولها فتلتهب الأنسجة الدَّاعمة لها، بينما تسلم الأضراس العاملة من ذلك. وخلاصة المعالجة الفيزيائية تحريك الأعضاء المتوقفة أو المتكاسلة عن الحركة حتَّى لا يزداد مرضها أو تموت، إلى أن يصير المريض قادراً على تحريكها.

فالعامل صحةً، والعجز والكسل مرضٌ وعلةٌ، والحركة بركةٌ.

ولئن كان هذا المعنى صحيحاً في الطِّبِّ السَّريري؛ فإنَّه أكثر صحةً في الطِّبِّ النَّفسي، وإنَّ أخطر حالات الدَّهن يومَ يفرغ صاحبه من العمل.

فعلّة العلل في الأمراض النفسية، أن يجلس المريض متكاسلاً لا يعمل، وحيداً لا يختلط أسير هواجسه ووساوسه، وأقوى العلاجات تكون في إدماجه بالناس، ومخالطتهم، وحركته وعمله النافع معهم. إن الانشغال بالعمل الصالح والعلم النافع يؤدي إلى انشراح الصدر وطيب الذكر وعميم الأجر.

أيها الإخوة:

إذا ازداد الهم فلنكثر من العمل الصالح والعلم النافع، وإذا كثر الضيق فلنكثر من العمل الصالح والعلم النافع، وإذا اشتد الكرب فلنكثر من العمل الصالح والعلم النافع، نل به شرح الصدر وطيب الذكر وعميم الأجر ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ (1) وَوَضَعْنَا عَنكَ وَزْرَكَ (2) الَّذِي أَتَقَضَى ظَهْرَكَ (3) وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ (4) فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (5) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (6) فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ (7) وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ (8)﴾ [الشرح: 1، 8].

والحمد لله رب العالمين